منهج الإمام أبي عبدالله محمد بن علي القلعي في التأليف "تهذيب الرياسة وترتيب السياسة" أنموذجاً

د. أحمد بن عبدالرحمن سالم بالخير
قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم التطبيقية، جامعة ظفار، سلطنة عمان

الملخص

يتناول هذا البحث منهج الإمام أبي عبدالله محمد بن علي القلعي في تأليف كتابه "تهذيب الرياسة وترتيب السياسة" من خلال كتابه تهذيب الرياسة وترتيب السياسة ، حيث تم الوقوف من خلال البحث على سيرة حياة المؤلف ومكانته العلمية ، ومن ثم طبيعة عصره. وبعد ذلك تم تناول المحاور الرئيسة التي تضمنها كتابه المشار إليه إضافةً إلى أهميته وطريقة القلعي في تناول محتوياته من خلال ذلك المنهج المحكم الذي تقوم عليه كتبه، وهو منهج يمكن وصفه –بادئ ذي بدء- بأنه منهج واضح المعالم، قريب المقصد، سهل المأخذ، يصل فيه القارئ أو الباحث إلى مبتغاه دون أدنى جهد؛ لأن صاحبه توخى فيه تيسير الفائدة منه، وجعلها تعم فتنتشر، فتشمل العوام والخواص، ولا تختص بفئة معينة من الناس، وذلك من خلال تيسير سبل البحث في مؤلفاته، وتخير مادتها، وطريقة عرضها، الأمر الذي يكسب كتبه طابعاً جماهيرياً، ويستدل منه على عقلية الرجل المعلم المؤلف الذي يمتلك موضوع كتابه، ويحيط إحاطة تامة تمكنه من توضيح عناصره بسهولة ويسر، ووضوح وجلاء، وبطريقة تؤدي إلى الإفهام والإقناع من خلال اطلاعه الوافي على مظانّ كتبه، واستيعابه لمفردات اللغة، ومعرفته لأساليبها، ومقدرته الفائقة في توظيف الشواهد وحسن استخدامها.

الكلمات المفتاحيّة: منهج التأليف، القلعي، تهذيب الرياسة.

١. حياة الإمام القلعي

١-١: اسمه، ولادته، نسبته، وفاته

هو الإمام " أبو عبدالله محمد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي علي القلعي ، قيل بفتح القاف وسكون اللام نسبة إلى قلعة حلب المدينة المعروفة بالشام ، وقيل بفتحهما نسبة إلى قلعة بلدة بالمغرب ، وقيل غير ذلك "(١).

لم تسعفنا كتب التراجم بتاريخ ولادته إلا أن المرجّح أنه ولد في العقد الثامن من القرن الخامس الهجري تقريباً(٢).

و قد اختلف المؤرخون في نسبة الإمام القلعي و في ضبط هذه النسبة تبعاً لاختلافهم في القلعة المنسوب إليها الإمام و في أي بلاد المسلمين هي(٣)، إلا أن ياقوت الحموي ذكر في معجمه " و القَلْعة موضع باليمن ينسب إليها الفقيه القلعي درس بمرباط ، و صنّف كنز الحفاظ في غريب الألفاظ ، والمستغرب من ألفاظ المهذب ، واحتراز المهذب ، وأحاديث المهذب ، وكتاباً في الفرائض ومات بمرباط "(٤)، مما يعضّد الترجيح بأنه من اليمن وليس من بلاد المغرب، كما أن نشأته وتلقّيه العلم بزبيد يشكّلان دعما لهذا الترجيح.

تشير كتب التراجم إلى أن القلعي عمِّر طويلاً حيث ناهز التسعين وصرّح بذلك الجندي في السلوك والخزرجي في العقود اللؤلؤية وتابعهم في ذلك الزركلي حيث أطبقوا على أن وفاته بمرباط في سنة ٦٣٠هـ ، إلا أن تاريخ الوفاة المنقوش على قبره يشير إلى سنة ٥٧٧هـ وقد مال إلى ذلك الأستاذان أكرم عصبان وسالم فرج مفلح(٥).

١-٢: شيوخه ، تلاميذه ، أعماله ، كتبه ، أقوال العلماء فيه

على الرغم من شهرة العلامة محمد بن علي القلعي التي أطبقت الآفاق _ على حدّ تعبير أصحاب التراجم والطبقات _ إلا أن المصادر لم تسعفنا بسيرة حياته لنتمكّن من خلالها الوقوف على شيوخه الذين تلقى العلم على أيديهم ، وليس هذا بمستغرب ، فمعظم علماء تلك الحقبة في ذلكم الركن الجنوبي من جزيرة العرب قد لفّ حياتهم ذلك الغموض المبرر وغير المبرر في أكثر الأحيان. وعليه فقد طفقت بالبحث عن أية إشارة إلى شيوخه من خلال كتب التراجم فلم أجد مبتغاي فتمثّلت بيت امرئ القيس :

وقد طَوَّفْتُ في الآفاقِ، حَتى رَضيتُ، مِنَ الغَنيمَةِ، بالإيابِ(٦)

إلا أن صاحب كتاب أدوار التاريخ الحضرمي ألمح إلى أن الشيخ سالم بن فضل بن عبدالكريم بافضل قد نظم فيه تلميذه محمد بن علي الظفاري قصيدة مادحاً إياه ، ومطلعها:

أبُرودُ وشي في المواسمِ تُنشرُ فَمُهفْهفٌ و مُسَهَّمٌ و مُحَبَّرُ(٧)

إن مما لا شك فيه أن الإمام القلعي قد أخذ هذا العلم والفقه بالتلقي ومجالسة كبار علماء زمانه لاسيما أنه نشأ في زبيد وعاصر الكثير من العلماء في تلك الفترة وهذا ما سنراه لاحقاً عند الحديث عن عصره.

أما تلاميذه فهم كثر ومن أشهرهم :

- أبو نصير يحيى بن نصير الأوسي ، كان معلماً في زمن المنجوي إلى أن قدم الإمام القلعي فلزمه وأخذ عنه(٨).
- أبو الحسن علي بن أحمد بامروان ، طلب العلم بتريم ورحل إلى مرباط فتخرّج بالإمام القلعي(٩).

بدأ الإمام القلعي نشاطه في مرباط(١٠) عاصمة إقليم ظفار ، فأقبل على التدريس ونشر العلم ، وأطبقت شهرته النواحي ، فقصده طلاب العلم ، ونستطيع أن نجمل أعماله في مقولة صاحب طبقات فقهاء اليمن في فصل (معرفة أسماء الفقهاء والقضاة من بلاد شتى) " ففي مرباط مفتيها وفقيهها محمد بن علي القلعي، له مصنفات حسنة منها قواعد المهذب وغيره "(١١)، فأعماله هي :

١. الفتيا :

قال ابن منظور في لسان العرب : " الفُتْيا والفُتْوى والفَتْوى ما أفتى به الفقيه "(١٢)، و المفتي: هو المخبر بحكم الله لمعرفته بدليله، وقيل: هو المخبر عن الله بحكمه، وقيل : هو المتمكن من معرفة أحكام الوقائع شرعا بالدليل مع حفظه لأكثر الفقه(١٣). تتضح لنا أهمية الفتيا من خلال التعريفات السابقة ولذلك فقد وضع العلماء الكثير من الشروط الملزمة لمن يتصدّر هذا المجال ، بل قد قام البعض إلى تقسيم المفتين إلى طبقات ومن هؤلاء ابن الصلاح في كتابه أدب المفتي والمستفتي ، وبالرجوع إلى ذلك الكتاب نجد أن الإمام القلعي يدخل في المرتبة الثالثة من الإفتاء حيث يقول ابن الصلاح : "الحالة الثالثة: أن لا يبلغ رتبة أئمة المذهب أصحاب الوجوه والطرق، غير أنه فقيه النفس حافظ لمذهب إمامه، عارف بأدلته، قائم بتقريرها، وبنصرته، يصور، ويحرر، ويمهد، ويقرر، ويزيف، ويرجح، لكنه قصر عن درجة أولئك، إما لكونه لم يبلغ في حفظ المذهب مبلغهم، وإما لكونه لم يرتضي في التخريج والاستنباط كارتياضهم، وإما لكونه غير متبحر في علم أصول الفقه على أنه لا يخلو مثله في ضمن ما يحفظه من الفقه ويعرفه من أداته، على أطراف من قواعد أصول الفقه، وإما لكونه مقصرًا في غير ذلك من العلوم التي هي أدوات الاجتهاد الحاصل لأصحاب الوجوه والطرق. وهذه صفة كثير من المتأخرين إلى أواخر المائة الخامسة من الهجرة المصنفين الذين رتبوا المذهب وحرروه وصنفوا فيه تصانيف بها معظم اشتغال الناس اليوم، ولم يلحقوا بأرباب الحالة الثانية في تخريج الوجوه، وتمهيد الطرق في المذهب"(١٤).

٢. القضاء :

هنالك فروق بين القضاء و الإفتاء ، وهذه الفروق ترجع إلى فرق في حقيقتهما ، وفروق في توابعهما ومجالاتهما ، فمن حيث الحقيقة أن القضاء إنشاء لا إخبار فهو " إنشاء إباحة أو الزام في مسائل الاجتهاد المتقارب فيما يقع فيه النزاع لمصالح الدنيا "(١٥)، في حين يكون الإفتاء إخبار يحتمل التصديق والتكذيب لا إنشاء. ومن هنا فالقضاء لا يكون إلا بلفظ منطوق ، وتكون الفتيا بالقول أو الفعل أو الإشارة. أما الفروق بينهما في توابعهما فهي أن الحكم يلزم المحكوم عليه قبوله والعمل به ، سواء اعتقده صواباً أم اعتقده خطأ. والفتيا بخلاف ذلك ، لا يلزم المستفتي قبولها والعمل بها ما لم يغلب على ظنه أنها صواب. ومن الفروق في مجالاتهما ، فالأحكام في الواجبات والمحرمات والمباحات ، ولا تكون في المكروهات والمستحبات. ويكون الإفتاء في ذلك كله. كما أن القضاء خاص بالمعاملات ، والإفتاء يكون في العبادات والآداب بالإضافة إلى المعاملات.

٣. التدريس :

تصدر القلعي للتدريس في مرباط ، فقصده طلاب العلم من كل ناحية ، وتتلمذوا على يديه في الفقه والفرائض والسياسة وغيرها فتخرّج به من العلماء الأجلاء من انتشر عنهم العلم في ظفار وحضرموت وغيرها.

٤. مؤلفاته:

إن تلك الأعمال الجليلة لم تشغل الإمام القلعي عن التأليف فصنّف العديد من الكتب أسهمت في إثراء الحياة العلمية والمكتبة الإسلامية فذكرت لنا كتب التراجم الكثير من تلك الكتب ومنها :

١. احترازات المهذب : ذكره السبكي في طبقاته حيث قال في ترجمة الإمام محمد بن علي القلعي : "صاحب كتاب احترازات المهذب ... " ، كما سجّل الخزرجي في العقود اللؤلؤية شهادة الفقهاء بتفرّده فقال : "وله احتراز المهذب الذي شهد له أعيان الفقهاء أنه لم يصنف في الاحتراز له نظير ".
٢. قواعد المهذب : ذكره ابن سمرة الجعدي فقال : " ... له مصنفات حسنة منها قواعد المهذب"(١٦)، وممن ذكره الجندي في السلوك والخزرجي في العقود اللؤلؤية .
٣. كنز الحفاظ في غريب الألفاظ : أشار إليه الجندي والخزرجي والزركلي.
٤. إيضاح الغوامض في علم الفرائض(١٧) : وهو عبارة عن مجلدين جيدين ، جمع فيهما بين مذهب الإمام الشافعي وغيره من أقوال الأحناف والمالكية ، مما يدل على اطلاعه على المذاهب الأخرى، وأنه لم يكن مقتصراً على دراية بمذهب الشافعي فقط. كما أورد فيه طرفاً جيداً من الجبر والمقابلة والوصايا ، وهذا يدل على احاطته بعلم الحساب.
٥. أحكام القضاة : ذكره الخزرجي والزركلي ، ويطلق عليه البعض أحكام القضاء.
٦. لطائف الأنوار في فضل الصحابة الأبرار : ذكره الخزرجي في العقود اللؤلؤية والجندي في السلوك والزركلي في الأعلام ، ويعد هذا الكتاب من أنفس كتب الإمام القلعي وأعظمها نفعاً ؛ إذ إن موضوعه متعلق بشمائل وصفات أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبيان فضلهم الذي جاء منصوصاً في الكتاب والسنة ، وقد أفرده العلماء بالتأليف وجعلوه في أبواب الاعتقاد.
٧. اللفظ المستغرب من ألفاظ المهذب : ذكره السبكي في طبقاته فقال : " وله كتاب آخر في مستغرب ألفاظه " أي المهذب ، كما نقل عنه الفيومي في مصباحه " وقال الشيخ أبو عبدالله القلعي في كتابه على غريب المهذب : القَرَن بفتح الراء بمنزلة العَفَلَة، فأوقع المصدر موقع الاسم ، وهو سائغ "(١٨).

٨. تهذيب الرياسة وترتيب السياسة : أشهر كتب الإمام القلعي ذكره الجندي في السلوك ، والخزرجي في العقود اللؤلؤية ، وخير الدين الزركلي في الأعلام.

٥. أقوال العلماء في الإمام القلعي:

لعل خير ما يدل على مكانة القلعي العلمية ويؤكد أهمية مؤلفاته تلك الشهادات التي سجلت بأقلام مترجميه ، فمن تلك الأقوال :

_ قول بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي (ت٧٣٢هـ) في مؤلفه السلوك في طبقات العلماء والملوك : " عنه _ أي القلعي _ انتشر العلم ، فتسامع به الناس إلى حضرموت ونواحيها ، فقصدوه وأخذوا عنه الفقه وغيره ، بحيث لم ينتشر عن أحد بتلك الناحية كما انتشر عنه ، وأعيان فقهائها أصحابه وأصحاب أصحابه ".

_ قول أبي الحسن علي بن الحسين الخزرجي (ت٨١٢هـ) في كتابه طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن : " وأكثر ما توجد مصنفاته في ظفار وحضرموت ونواحيها، وعنه انتشر الفقه في تلك الناحية ، ولم ينتشر العلم عن أحد في تلك الناحية كما انتشر عنه ، وأعيان فقهائه أصحابه وأصحاب أصحابه ".

- **قول شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) في كتابه تقريب التهذيب: " إن الفقه الشافعي انتشر عن القلعي بظفار وحضرموت ، وإن الناس تسامعوا به في حضرموت وغيرها، فقصدوه وحملوا عنه "(١٩).**

٢ : عصره

٢-١ : أوضاع زبيد

كانت زبيد قد شهدت في القرن الخامس الهجري ظهور دولة جديدة ، ففي سنة ٤١٢هـ ظهرت دولة بني نجاح التي قامت على أنقاض دولة بني زياد في تهامة ، وقد شجع نجاح مذهب أهل السنة ، وكان نجاح نفسه شافعي المذهب ، وانتهت هذه الدولة في حدود سنة ٤٥٤هـ وظهرت الدولة الصليحية برئاسة علي بن محمد الصليحي ، واستمرت حتى سنة ٥٣٢هـ. وفي سنة ٥٥٤هـ قصد علي بن مهدي الرعيني زبيد وعاث فيها فساداً ، وتحت وطأت هذه الفتنة خرج الإمام القلعي من زبيد.

ومن ناحية أخرى فقد عرفت حضرموت في بدايات القرن الخامس الهجري العديد من الدول ، فهناك دولة آل راشد ومقرها مدينة تريم ، ودولة آل دغار ومقرها شبام ، ودولة آل إقبال ومقرها الشحر ، ودولة المنجوي ومقرها مرباط.

لقد عرفت زبيد بكونها مركزاً للعلوم ، وخاصة للمذهب الشافعي الذي ازداد رسوخاً لسببين : أحدهما: تبني الدولة النجاحية له ، وثانيهما : العلماء الدين ما فتئوا يحررون أصوله ويقررون فروعه ، حتى أقبل الناس عليه من سائر البلاد خاصة بعد دخول المهذب للشيرازي إليها. ومن علماء الشافعية الذين كانت تعج بهم زبيد القاسم بن محمد الجمحي (ت:٤٣٧هـ) الذي أخذ عنه علماء لحج وأبين، والفقيه زيد بن عبدالله اليفاعي (ت:٥١٤هـ) أخذ عنه جلة الفقهاء من أبين وحضرموت.

وكان الأمر كذلك في حضرموت فقد اختار علماء حضرموت الفقه الشافعي أما انتشاره في حضرموت فإنما كان على يد الإمام القلعي الذي ألقى رحله بمرباط سنة (٥٥٤هـ)(٢٠).

٢-٢ : الحياة السياسية في مرباط

كانت ظفار في القرن السادس الهجري تحت حكم دولة المنجويين وعاصمتها مرباط، وكانت هذه الأسرة أسرة علم وأدب وكرم ومحبة للعلماء قبل أن تكون أسرة حكم وسياسة. وكان من أشهر سلاطينها أحمد بن منجوه وابنه محمد بن أحمد (قدم القلعي مرباط في عهده) والسلطان محمد بن محمد بن أحمد الملقب بالأكحل.

كانت مرباط في عهد المنجويين تحتل مكانة كونها بوابة اليمن على بلاد الهند والسند، إضافة إلى الاستقرار والعدل الذي أرست دعائمه الدولة المنجوية. وهنا تتضح بعض المعالم التي كانت وراء إلقاء الإمام القلعي رحله في مرباط بعد خروجه من زبيد إثر ثورة ابن مهدي حين كان في طريقه إلى عاصمة الخلافة العباسية بغداد.

٢-٣ : الحياة العلمية في مرباط

أشرت فيما سبق أن حضرموت قد شهدت ظهور المذهب الشافعي وغلبته في القرن السادس الهجري خاصة ، و منها سلك طريقه إلى ظفار ومرباط. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الحركة العلمية في مرباط كانت متمثلة في وجود عدد من العلماء واستبنت ذلك من أخبار استقبالهم للإمام القلعي عند استراحته على الشاطئ بعد سفره الطويل من زبيد قاصدا بغداد، كما أن السلطان محمد بن أحمد المنجوي _ فيما يروى _ كانت لديه مكتبة حافلة بالكتب النافعة وقد ساوم الإمام القلعي في بقائه شريطة أن يمكّنه من مقتنياتها. وهكذا أصبحت مرباط قبلة يؤمها طلبة العلم لا سيما بعد استقرار الإمام القلعي بها وتصدره للتدريس فوفد إليها الكثير من طلبة العلم من حضرموت واستعاضوا بها زبيد.

٣ : السياسة الشرعية

عرّفها أبو البقاء الكفوي في كلياته، حيث قال: "السياسة هي استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل والآجل، وهي من الأنبياء على الخاصة والعامة في ظاهرهم وباطنهم، ومن السلاطين والملوك على كل منهم في ظاهرهم لا غير، ومن العلماء ورثة الأنبياء على الخاصة في باطنهم لا غير"(٢١).

والسياسة إذا كانت تنطلق من الشريعة وتتقيد بنصوصها وأحكامها كانت سياسة شرعية، وأما إن كانت تنطلق مما ترى العقول صوابه من خلال تصوراتها وتجاربها من غير تقيد بالشرع فهذه سياسة عقلية أو مدنية، وهي مباينة للسياسة الشرعية.

ألف العلماء المسلمون في السياسة الشرعية إلا أن ذلك التأليف ظهر متأخراً ولا غرو في ذلك إذ إن من المعروف أن وجود العلم يسبق تدوينه بمدة قد تطول وقد تقصر، فتدوين العلم لاحق على وجوده، وذلك أمر موجود في كل العلوم الدينية أو الدنيوية، ولا يعني عدم تدوين العلم في الفترة السابقة على التدوين عدم وجد العلم فيها فذلك أمر لم يقل به أحد .

لقد تعددت مناهج العلماء في هذا المجال فكتب التراث السياسي في الإسلام تُعَدُّ بالمئات، وقد أَلَّف هذا التراث الفقهاء والأدباء والفلاسفة؛ لذلك نجد أن مناهج هذه الكتب مختلفة تبعاً للمنهج الذي أُلِّفت من خلاله، والهدف الذي كُتبت من أجله، ومن الخطأ الظن أن هذه الكتب صُنِّفت على نسق واحد، وأن التراث السياسي في الإسلام أُلِّف بطريقة واحدة، ويتعرض للسياسة من منظور واحد، بل نجد من خلال استقراء التراث السياسي الإسلامي أن هذا التراث كُتب بمناهجَ مختلفة، ونجد الموضوع الواحد يُعالج في هذا التراث بطرق مختلفة؛ تبعاً لاختلاف المنهج والتصور العام للمفهوم السياسي للإسلام.

ومن هذه الكتب : آداب الملوك لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت٤٢٩هـ)، و الأحكام السلطانية والولايات الدينية وكتاب درر السلوك في سياسة الملوك لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي الشافعي (ت

٤٥٠هـ) ، والأحكام السلطانية والولايات الدينية لأبي يعلى الفراء الحنبلي (ت٤٥٨هـ) ، وغياث الأمم في التياث الظلم لإمام الحرمين أبي المعالي الجويني (ت٤٧٨هـ) ، و التبر المسبوك في نصيحة الملوك لأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت٥٠٥هـ) ، و تهذيب الرياسة وترتيب السياسة لمحمد بن علي بن أبي علي القلعي (ت٥٧٧هـ) ، و المنهج المسلوك في سياسة الملوك لعبد الرحمن بن نصر بن عبد الله الشيزري (ت٥٨٩هـ).

٣-١ : كتاب تهذيب الرياسة وترتيب السياسة وأهميته

ألّف الإمام القلعي كتابه تهذيب الرياسة وترتيب السياسة سالكاً منهجاً يهدف إلى وعظ الملوك والحكام والولاة، عن طريق ذكر النصائح والأخبار والحكم والأمثال في فضائل الأخلاق التي يستقيم بها الملك وتصلح بها حال الرعية، كما يتعرض في كتابه إلى بيان خطر الأخلاق المذمومة وأثرها في زوال الملك وضعفه، وذكر القلعي في كتابه ما يجب أن يتصف به أعوان السلطان من الوزراء والقادة ، كما يذكر الإحسان إلى الجند وفرض الأرزاق لهم وكيفية جباية الأموال، وحسن التدبير في الحروب ومكايدها. وقد خرج الكتاب محققاً في طبعته الأولى عن مكتبة المنار بالأردن سنة ١٩٨٥م.

تكمن أهمية تهذيب الرياسة وترتيب السياسة في كونه موجهاً إلى الحكام والسلاطين والأمراء ليكون لهم مرشداً ودليلاً فيما يقومون به من أمور دينية ودنيوية. أضف إلى ذلك فهو موجّه إلى من هم قريبون من أولئك الحكام والوزراء فدعاهم إلى أن يتحلّلوا بالصفات الحميدة الفاضلة . فضلاً عن أنه موجّه إلى عامة الشعب في دعوتهم إلى السمع والطاعة. والحق أن هذا الكتاب يعتبر نموذجاً لما كان عليه العلماء العاملون الذين كتبوا في كل فن واستغلوا إمكانياتهم لخدمة العلم والإسهام في توجيه الحياة نحو الأفضل ، خاصة في هذا الموضوع الحيوي الحساس الذي يهم الأمة كلها ، لأنه بصلاح متولّيها تصلح.

لم يشر الإمام القلعي في كتابه إلى أنه قد ألّف هذا الكتاب لأحد السلاطين أو الحكام _ كما كان أكثر يفعل أكثر من ألّف في هذا المجال كالغزالي في كتابه التبر المسبوك الذي وجّهه إلى السلطان السلجوقي في عهده _ وإنما قدّمه حسبة لله تعالى . لقد عني الإمام القلعي في كتابه بالسير والأفعال والأقوال الدالة على السؤدد والحكمة والحنكة السياسية والأخلاق الحميدة.

٣-٢ : منهج القلعي في كتابه

لقد كان الكتاب موجهاً إلى أطياف مجتمعية متعددة فهو للحكام والسلاطين والوزراء والرعية ولذلك كان عليه أن يسلك في تقديمه منهجاً يتناسب وهذه الأطياف المتعددة فاعتمد ذلك المنهج المحكم الذي يمكن وصفه -بادئ ذي بدء- بأنه منهج واضح المعالم، قريب المقصد، سهل المأخذ، يصل فيه القارئ أو الباحث إلى مبتغاه دون أدنى جهد، لأن صاحبه توخى فيه تيسير الفائدة منه، وجعلها تعم فتنتشر، فتشمل العوام والخواص، ولا تختص بفئة معينة من الناس، وذلك من خلال تيسير سبل البحث في مؤلَّفه، وتخير مادته ، وطريقة عرضها، الأمر الذي أكسب كتابه طابعاً جماهيرياً، ويستدل منه على عقلية الرجل المعلم المؤلف الذي يمتلك موضوع كتابه، ويحيط إحاطة تامة تمكنه من توضيح عناصره بسهولة ويسر، ووضوح وجلاء، وبطريقة تؤدي إلى الإفهام والإقناع من خلال إطلاعه الوافي على مظانّ كتبه، واستيعابه لمفردات اللغة، ومعرفته لأساليبها، ومقدرته الفائقة في توظيف الشواهد وحسن استخدامها.

وقد حرص على مثل هذه الميزة ليسهل تناوله ويقرب مأخذه، ولذلك أسهب في شرح منهج كتابه بشكل واف في المقدمة ، كما حرص على عرض مادته بأسلوب واضح لا غرابة فيه لتكون المادة العلمية التي يقدمها قريبة المأخذ، سهلة المطلب لأن هدفه عامة الناس وليس خاصتهم فقط. يقول في مقدمة كتابه : " فهذا الكتاب جمعته في تهذيب الرياسة وترتيب

السياسة وجعلته قسمين : القسم الأول منه يشتمل على أنواع أبواب يحتوي على غرر من كلام الحكماء ودرر من نظام الفصحاء مما ينسبك في قالب الأمثال الشاردة وينتظم في سلك الحكم الواردة يتضمن محاسن الأوصاف المحمودة من ذوي الأمر و ذم أضدادها وما يجب استعماله أو تركه من الأمور التي يحمد متبعها عاقبة إصدارها وإيرادها. والقسم الثاني بحكايات من الخلفاء ووزرائهم وعمالهم وأمرائهم مما يدل على نبلهم وغزارة فضلهم وحسن سيرتهم وكمال مروءتهم وما اشتملت عليه طرائقهم وحوته خلائقهم من العدل والإنصاف والبذل والإسعاف والعفو عند الاقتدار وقبول النصح من الناصحين وسماع الموعظة من الصالحين مع ما اتصفوا به من علم وأدب ووقار وحلم وفصاحة وبراعة وسماحة وشجاعة فمن اتخذ ذلك إماماً ارتفع وانتفع ومن عمل بما شاكله رشد وحمد. وقد ابتدأت ذلك بذكر وجوب الإمامة وعدم الاستغناء عن الولاة وما يجب لهم على الكافة من الطاعة والموالاة والله تعالى الموفق لانتظامه والتيامه والمعين على إتمامه واختتامه "(٢٢).

ومن خصائص المنهج التأليفي عند القلعي:

١. العناية بذكر مصادر كتابه وحسن استخدامها وتوظيفها في البحث. وهي مسألة لا ينفرد بها القلعي، وإنما تشكل إحدى مرتكزات المنهج التأليفي عند العرب ابتداء من القرن الرابع الهجري.

فمن الحقائق المستقرة في الحياة العلمية عند العرب، أن الرواية الشفوية، كانت المصدر الذي يمثل الأساس فيما نقل عن العرب من معارف وعلوم، وقد عني القدماء بها عناية فائقة تمثلت في اهتمامهم البالغ بإسناد كل خبر إلى راويه، وكل قول إلى قائله وكل نص إلى منشئه، واستمر هذا الاهتمام إلى ما بعد عصر التدوين، وقادهم ذلك –وما يتضمنه من ذكر المصدر وإيراد السند– إلى تحري الدقة وتوخي الضبط، ودفعهم للتلمذة على شيوخ العلم وأئمته. لقد أورد القلعي في كتابه أسماء الكثير من المصادر التي استقى منها معلوماته ومن ذلك : كتاب المبهج للثعالبي حيث ذكره في مواطن كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر : " ومن كلام الثعالبي في المبهج : الملك من يوالي لأوليائه صلاته "(٢٣)، و " ومن كتاب المبهج : لا يتخذ الملك الأعوان إلا أعيان ، والأخلاء إلا أجلاء ، والندماء إلا كرماء "(٢٤)، و مقامات الحريري ذكرها في مواضع عدة منها : " وقال الحريري : أسعد الناس من سعدت به رعيته "(٢٥). كما أنه ذكر أسماء بعض الأعلام الذين أورد أقوالهم ومن ذلك : " وقال الحسن : والله ما تشاور قوم قط إلا هداهم الله لأفضل ما يحضرهم"(٢٦)، و " قال معاوية : أنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه "(٢٧).

٢. شرح بعض المفردات ، ومن ذلك شرحه لفظة (الداري) الواردة في الحديث " مثل الجليس الصالح كالداري إن لم يحذيك من عطره، عَلَقَكَ من ريحه " حيث قال الإمام القلعي : " قلت الداري : العطار ، ويحذيكَ : أي يعطيك ويهب لك "(٢٨)، و تفصيله للفظة (الحطمة) في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم " شر الرعاة الحطمة " قال القلعي : " قلت : الحطمة من الرعاة هو العنيف برغبة المال فكأنه يحطّمها أي يكسرها "(٢٩) بل نجده يسلك أكثر من ذلك أحياناً ففي خطبة الحجاج عند ولايته على أهل العراق التي أوردها الإمام القلعي قال : " وهذه الحكاية قد اشتملت على ألفاظ كثيرة من الغريب ، وأنا أشير إلى بيانها على سبيل الاختصار ..." ثم شرح في تفسير الغريب من تلك الخطبة(٣٠).

٣. انتفاء ظاهرة الاستطراد وتكرار النصوص ، هذه الظاهرة التي نراها بارزة في منهج التأليف عند العرب وكان لهم في ذلك وجهة نظر، فالقلعي ملتزم بالموضوع الذي يعالجه لا يتجاوزه، متقيد بالفكرة التي يفرضها لا يتعداها حتى يعطيها حقها، ويوفر لها كل مستلزماتها، ويسوقها بطريقة تكشف عن مقدرة بارعة على تناول الموضوعات وعرضها وتحليلها. وقد قاده هذا الأمر إلى عدم تكرار المادة في الكتاب الواحد، بل نراه حريصاً على ذلك في رسم منهج كتابه متيقظاً له، متحاشياً إياه في كثير من مواضع الكتاب.

٤. اهتمامه بعلم الحديث ، حيث نجده يدلل على المسألة ، فلا يذكر رأياً أو يورد قولاً دون أن يستدل عليه بالنصوص من الكتاب والسنة.

لقد تجنب ذكر الخلافات الفقهية في الفروع وهو مسلك حسن في منهجية كتب السياسة حتى لا يشتت الذهن ويوقع المسؤول في حيرة ، وإن وُجدَ شيء من هذا أشار إليه إشارة مقتضبة كما قال في وجوب نصب الإمام وما يجب أن يتوافر فيه من الأوصاف " أجمعت الأمة قاطبة إلا من لا يعتد بخلافه على وجوب نصب الإمام على الإطلاق وإن اختلفوا في أوصافه وشرائطه "(٣١).

الخاتمة

وهكذا كان منهج القلعي في التأليف مؤسساً على ثوابت علمية واضحة، تمثلت في الترتيب الواضح، والمأخذ السهل، ووحدة الموضوع، وانتفاء التكرار، والتوثيق العلمي، فظهر لنا مؤلفاً متميزاً متمكناً، توافرت لكتابه مقومات المنهج العلمي الحديث، مما يجعله يشغل منزلة رفيعة بين رجالنا العظماء وعلمائنا النوابغ، وكتّابنا الأفذاذ، جاء بجديد في مجال التأليف والتصنيف، وأسهم في تطور منهج التأليف والبحث عند العرب.

النتائج والتوصيات

من خلال استعراض حياة الإمام القلعي، بيئته، مؤلفاته، ومنهجه في التأليف، يمكن استخلاص النتائج الآتية:

١. **مكانة الإمام القلعي العلمية:**
   - الإمام القلعي كان أحد أبرز علماء عصره، حيث جمع بين الفقه، التأليف، والقضاء.
   - تأثر ببيئته العلمية في زبيد، التي كانت مركزاً للعلوم الشرعية والمذهب الشافعي، مما انعكس على منهجه العلمي.
   - شهرته انتشرت في ظفار وحضرموت، واستفاد منه طلاب العلم في تلك النواحي.

٢. **مؤلفاته وأثرها:**
   - تميز الإمام القلعي بغزارة إنتاجه العلمي، ومن أبرز مؤلفاته *تهذيب الرياسة وترتيب السياسة*، الذي أصبح مرجعاً مهماً في السياسة الشرعية.
   - مؤلفاته لم تقتصر على الشريعة، بل شملت علوم اللغة، والفقه المقارن، وعلم الفرائض، مما يعكس تنوع اهتماماته وعمق معرفته.
   - حرص القلعي في مؤلفاته على توثيق المصادر، وعرض الشواهد، وتجنب الاستطراد، مما يجعله نموذجاً للمؤلف المنهجي.

٣. **منهجه في التأليف:**
   - اعتمد القلعي منهجاً واضحاً وميسراً يخاطب شريحة واسعة من القراء، مما جعل مؤلفاته متاحة للعامة والخاصة.
   - تميزت كتاباته بالتوثيق العلمي الصارم، والترتيب المنهجي، مما يجعلها تلبي متطلبات البحث العلمي الحديث.

٤. **كتاب *تهذيب الرياسة وترتيب السياسة*:**

- يمثل نموذجاً للسياسة الشرعية التي تجمع بين الحث على الفضائل الأخلاقية والنصائح العملية للحكام.
- جمع القلعي بين النصوص الشرعية والأمثال والأقوال المأثورة لتوضيح رسالته.
- الكتاب يبرز دور العلماء في تقديم النصح للحكام وتحقيق التوازن بين الدين والسياسة.

٥. **البيئة السياسية والعلمية التي عاش فيها:**

- تأثر القلعي بالاستقرار النسبي الذي عرفته مرباط في ظل حكم المنجويين، مما وفر له البيئة المناسبة للتأليف والتدريس.
- خروجه من زبيد نتيجة الاضطرابات السياسية يظهر تأثر العلماء بالمتغيرات السياسية والاجتماعية في مناطقهم.

٦. **السياسة الشرعية ومنهج القلعي فيها:**

- قدم الإمام القلعي تصوراً متوازناً للسياسة الشرعية، يركز على الإصلاح الأخلاقي والإداري.
- كان هدفه توجيه الحكام للعدل، والرعية للطاعة، والعلماء للنصح، مما يعكس شمولية منهجه.

التوصيات:

- الاستفادة من مؤلفات الإمام القلعي كمصدر لتدريس السياسة الشرعية والتاريخ الإسلامي.
- إجراء دراسات مقارنة بين منهج القلعي ومناهج معاصريه في التأليف.
- إحياء مؤلفات القلعي الأخرى من خلال تحقيقها ودراستها لتسليط الضوء على مساهماته المتنوعة.

الهوامش

(١) السلوك في طبقات العلماء والملوك ، أبوعبدالله بهاء الدين محمد بن يوسف الجندي ، تحقيق محمد بن علي الأكوع ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٣٣م ، ٤٥٣/١.

(٢) جهود الإمام القلعي العلمية ، أكرم مبارك عصبان ، دار الصديق للنشر والتوزيع ، صنعاء ، /١١.

(٣) انظر: السلوك في طبقات العلماء والملوك ٤٥٣/١ ، و العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية لأبي الحسن علي بن الحسين الخزرجي ، وقد رجّح خير الدين الزركلي في الأعلام نسبته إلى قلعة حلب ، ٢٨١/٦.

(٤) معجم البلدان ، ياقوت بن عبدالله الحموي ، دار صادر ، بيروت ، ٣٨٩/٤ ، وانظر: طبقات الشافعية ، عبدالرحيم الإسنوي ، تحقيق كمال يوسف الحوت ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ١٦٤/٢ حيث أضاف:" منسوب إلى بلد باليمن يقال لها القلعة ، بينها وبين زبيد نحو يوم ".

(٥) انظر: حضرموت بين القرنين الرابع والحادي عشر للهجرة ، سالم فرج مفلح ، دار حضرموت للدراسات والنشر ، المكلا ، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م ، /١٥٧.

(٦) دوان امرئ القيس ص٦.

(٧) أدوار التاريخ الحضرمي ، محمد بن أحمد بن عمر الشاطري ، دار المهاجر ، المدينة المنورة ، الطبعة الثالثة ١٤١٥هـ/١٩٩٤م ، ١٩٨/١.

(٨) انظر: السلوك في طبقات العلماء والملوك ٤٤٥/٣.

(٩) السابق ٤٤٨/٣.

(١٠) " وضبطها بخفض الميم وسكون الراء وفتح الباء الموحدة ثم ألف ثم طاء مهملة سميت بذلك لكثرة ما كان يربط بها من الخيل " السلوك في طبقات العلماء والملوك ٤٥٣/١.

(١١) انظر: طبقات فقهاء اليمن ، عمر بن علي بن سمرة الجعدي ، تحقيق فؤاد سيد ، دار القلم ، بيروت ، /٢٢٠.

(١٢) لسان العرب / محمد بن مكرم بن منظور ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، (فتا).

(١٣) السابق.

(١٤) أدب المفتي والمستفتي ، أبو عمرو عثمان بن عبدالرحمن المعروف بابن الصلاح ، تحقيق د.موفق عبدالله عبدالقادر ، دار العلوم والحكمة ، المدينة المنورة ، الطبعة الثانية ٢٠٠٢م ، /٩٨.

(١٥) الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرف القاضي والإمام ، شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي ، تحقيق الشيخ عبدالفتاح أبوغدة ، طبعة مكتب المطبوعات الإسلامية ، حلب ١٤١٦هـ ، /٢٠.

(١٦) طبقات فقهاء اليمن /٢٢٠.

(١٧) انظر: جهود الإمام القلعي العلمية /٦١.

(١٨) المصباح المنير ، أحمد بن محمد الفيومي ، تحقيق د.عبدالعظيم الشناوي ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، باب (القاف):".

(١٩) نقلاً عن : جهود الإمام القلعي العلمية /٤٤.

(٢٠) طبقات فقهاء اليمن /٨٧-١٥٣.

(٢١) الكليات لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي١/٨٠٨.

(٢٢) تهذيب الرياسة وترتيب السياسة /٧٢-٧٣.

(٢٣) السابق / ١٢٤.

(٢٤) السابق / ١٥٢.

(٢٤) السابق /١٢٤.

(٢٥) السابق/١٨٣.

(٢٦) السابق /١٩٤.

(٢٧) تهذيب الرياسة وترتيب السياسة /١٥١.

(٢٩) السابق /١٩٤

(٣٠) السابق / ٢٨٢-٢٨٤.

(٣١) السابق /٧٤.

المصادر والمراجع

١ــ الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرف القاضي والإمام ، شهاب الدين أحمد ابن إدريس القرافي ، تحقيق الشيخ عبدالفتاح أبوغدة ، طبعة مكتب المطبوعات الإسلامية ، حلب ١٤١٦هـ.

٢ــ أدب المفتي والمستفتي ، أبو عمرو عثمان بن عبدالرحمن المعروف بابن الصلاح ، تحقيق د.موفق عبدالله عبدالقادر ، دار العلوم والحكمة ، المدينة المنورة ، الطبعة الثانية ٢٠٠٢م.

٣_ أدوار التاريخ الحضرمي ، محمد بن أحمد بن عمر الشاطري ، دار المهاجر ، المدينة المنورة ، الطبعة الثالثة ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

٤_ الأعلام ، خير الدين بن محمود الزركلي ، دار العلم للملايين بيروت الطبعة الرابعة ١٩٧٩م.

٥_ تقريب التهذيب أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، دار الفكر بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ وهو اختصار لكتابه تهذيب التهذيب على تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي.

٦_ تهذيب الرياسة وترتيب السياسة للإمام أبي عبدالله محمد بن علي القلعي ، تحقيق إبراهيم يوسف مصطفى عجو ، مكتبة المنار ، الأردن _ الزرقاء ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٧_ جهود الإمام القلعي العلمية ، أكرم مبارك عصبان ، دار الصديق للنشر والتوزيع ، صنعاء.

٨_ حضرموت بين القرنين الرابع والحادي عشر للهجرة ، سالم فرج مفلح ، دار حضرموت للدراسات والنشر ، المكلا ، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.

٩_ السلوك في طبقات العلماء والملوك ، أبوعبدالله بهاء الدين محمد بن يوسف الجندي ، تحقيق محمد بن علي الأكوع ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

١٠_ طبقات الشافعية ، عبدالرحيم الإسنوي ، تحقيق كمال يوسف الحوت ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

١١_ طبقات فقهاء اليمن ، عمر بن علي بن سمرة الجعدي ، تحقيق فؤاد سيد ، دار القلم، بيروت.

١٢ _ طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن ، علي بن الحسين الخزرجي ت ٨١٢هـ تحقيق عبدالله محمد الحبشي الحضرمي والدكتور مصطفى عبدالكريم الخطيب، دار المناهج للنشر والتوزيع ، جدة ، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.

١٣_ العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية لأبي الحسن علي بن الحسين الخزرجي ، تصحيح وتنقيح الشيخ محمد بسيوني عسل ، مطبعة الهلال ، مصر ١٩١١م.

١٤_ الكليات لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي ، تحقيق د.عدنان درويش و محمد المصري ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ,١٩٧٦

١٥_ لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

١٦_ المصباح المنير ، أحمد بن محمد الفيومي ، تحقيق د.عبدالعظيم الشناوي ، دار المعارف، الطبعة الثانية.

١٧_ معجم البلدان ، ياقوت بن عبدالله الحموي ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ٢٠٠٧م.